الدكتور عماد الدين خليل

قوام الدولة أبو سعيد كربوقا

أول وال سلجوقي على الموصل ٤٨٩ - ٤٩٥هـ
١٠٩٥ - ١١٠١ م

الموصل بين عهدين :

إن العصر الذي سبق الحكم الأتابكي(١) للموصل، والذي يمكن تسميته بعهد ولاة السلاجقة، كان يتسم بخصائص عامة جعلته يختلف الى حد ما عن الحكم الاتابكي الذي أنشأه عمادالدين زنكي في الموصل عام ٥٢١هـ. ويبدو ـ من الناحية الظاهرية ـ ان كلا العهدين متمم للاخر، وان العهد الثاني انما هو استمرار لسابقه من حيث طبيعة العلاقة بالسلطان السلجوقي الحاكم، حيث كان الأمراء في كلا العهدين يمارسون مهامهم الادارية نواباً عن السلاطين السلاجقة.

(١) على الرغم من أن عدداً من ولاة السلاجقة قبل زنكي كانوا تابكة أيضاً، حيث كلفوا بالاشراف على أبناء السلاطين الذين اثيرت البلاد بأسمهم، الا أن معظم المؤرخين القدماء والمحدثين خصوا بلقب الاتابكة زنكي وابناءه من بعده وهو العهد الذي يطلق عليه أيضاً اسم (العهد الاتابكي).

ومن حيث الوقوف—قوة وضعفاً—بوجه الخطر الصليبي الزاحف. ولكننا اذا ما تفحصنا طبيعة الحكم في كلا العهدين بدقة فسنجد بينهما تفاوتاً واضحاً، سواء في علاقاتهما الخارجية ام في سياستهما الداخلية.

وأول ما يلاحظ في هذا المجال، أن الولاة كانوا على اتصال مباشر بالسلطان السلجوقي، يوجههم كيف يشاء، ويعزلهم متى اراد، حتى لو اضطره الامر الى استخدام القوة ضد من تحدثه نفسه بالسعي الى الاستقلال بمناطق ولايته. ورفض الارتباط المباشر بالسلطان. اما في العهد الاتابكي فقد غدا امراء الموصل على درجة كبيرة من الاستقلال والتمتع بالسلطة الفعلية، ولم يبق للسلطان السلجوقي سوى السلطة الرسمية والشكلية، وابرز مثل على ذلك هو استقرار النظام الوراثي في الحكم في اعقاب عماد الدين زنكي بحيث لم تعد للسلطان أية مشيئة في عزل أحدهم، او إصدار أوامره لوال جديد بالتوجه الى الموصل، واستلام ادارتها. كما كان الحال في السابق.

وإذ كان الولاة معرضين دائماً—نتيجة ارتباطهم المباشر بالسلطان—للإقالة والعزل من جهة ولتلقي الاوامر بالتوجه الى الشام لقتال الصليبيين الذين كانوا يزحفون بسرعة صوب الشرق—من جهة أخرى، فقد غدت طبيعة ادارتهم وسياستهم الداخلية قلقة غير مستقرة، بحيث ان زنكي لدى استلامه مهام الحكم في الموصل لم يجد ثمة جهازاً واضحاً للادارتين المحلية والعامة في مختلف المجالات، فقام هو بإنشاء جهاز إداري متكامل. كما انه وجد تدهوراً في النشاط العمراني، وخراباً شمل مناطق واسعة من الموصل. حتى أن الناس لم يكونوا يستطيعون الذهاب الى الجامع—فيما عدا يوم الجمعة—بسبب بعده عن المناطق السكنية(٢).

وهذا يشير الى عدم اهتمام معظم ولاة السلاجقة بإعادة أعمار المناطق التي استولى الخراب عليها على الرغم من انتشارها في قلب المدينة، وظل الامر كذلك حتى مجيء زنكي وقيامه بإصلاحات مهمة في هذا المجال.

(٢) ابن الاثير: الباهر ص٧٧، الكامل ١١/٤٥، ابو شامة: الروضتين ١/١١٠.

اما الناحية الاقتصادية، حيث تعد الزراعة الأساس الرئيس لاقتصاديات المنطقة بناء على موقعها، وطبيعة مناخها، ووفرة مياهها، فقد أصيبت هي الاخرى بالتدهور في هذا العهد. وغدت أقل البلاد فاكهة—كما يشير ابن الاثير—: قل عنبها حتى كاد ينعدم، وتقلص انتاج الرمان والكمثرى والتفاح الى حد كبير(٣) ولم تنطرق المصادر الى وضعية زراعة الحبوب. ولا الى بقية الفعاليات الاقتصادية الاخرى كالتجارة والصناعات المحلية. واذا ما عرفنا مدى ارتباط النشاط الاقتصادي بالحركة العمرانية، بدا واضحاً تأخر الموصل في هذا المضمار كتأخرها في العمران، خاصة بعد افتقاد الأمن في المنطقة الى حد غدا معه ايا من سكان المدينة لا يستطيع الابتعاد كثيراً عنها الا ومعه من يحميه(٤). ولعب العيارون وقطاع الطرق—الذين تعدى نشاطهم مدينة بغداد—دوراً كبيراً في افتقاد الأمن وتدهور التجارة. حيث قاموا—في هذه الفترة—بأعمال التمرد والاستيلاء على السفن التجارية القادمة من الموصل صوب بغداد وبالعكس(٥).

فإذا ما أضيف الى ذلك ظلم بعض ولاة السلاجقة، الذين تسلموا حكم الموصل بأساليب العنف، وإتاحة الفرصة للأقوياء بظلم الضعفاء. وعدم استقرار أي وال مدة كافية من الزمن يستطيع—معها—ان يتفهم مشاكل المدينة وما يحيطها، وأحتياجات سكانها، من أجل أن يقوم بإحداث إصلاحات جدية—كما فعل زنكي فيما بعد—فضلا عن الخطر الصليبي الذي كان يتهدد جميع المواقع غربي الموصل، وانهماك الولاة بإيقاف هذا الخطر، والقلق الذي سيطر على السكان(٦) إستطعنا أن ندرك مدى تدهور الحالة الاقتصادية. حتى لقد ارتفعت الاسعار في بعض السنين، في المنطقة وهلك كثير من ضعاف الناس جوعاً.(٧)

---

(٣) ابن الاثير: الباهر ص٧٨، الكامل ١١/٤٥.

(٤) الكامل: ١١/٤٥.

(٥) ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والامم، ج٩ص٢١٦.

(٦) الكامل: ١١/٤٥.

(٧) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص٢١٢.

ومما زاد في تقلص النشاط التجاري في المنطقة، ما كان التجار والمسافرون يتعرضون له من تهديد الصليبيين وهجماتهم على القوافل التجارية، بحيث لم يكن أحد من هؤلاء التجار يبحث عن طريق غير مسلوك هرباً من الصليبيين، حتى يجد نفسه معرضاً للخطر من قبل البدو المنتشرين في المنطقة. ولم يستطع حكام المسلمين الحد من هذه المخاطر لانشغالهم بالمنازعات والحروب فيما بينهم.

وكانت هناك ظاهرة (التحكم) التي اتسمت بها هذه المرحلة التاريخية، أكثر من أي وقت مضى، والتي نجمت عن رغبة كل أمير في الاستقلال بمدينته أو قلعته. مهما كانت تافهة صغيرة، وإقامة إمارة تتمتع باستقلال ذاتي، واتخاذ الالقاب المختلفة. وكان استفحال هذه الظاهرة يقف حائلا دون توسع اية امارة وبلوغها درجة من التمكن العسكري والاقتصادي. وقد أثر هذا بطبيعة الحال على موارد الموصل وأقتصادياتها، إذ اقتطعت معظم المواقع والقلاع التابعة للموصل من قبل الامراء الطموحين، وما تبقى مما يعود للسلطنة السلجوقية عانى من ظاهرة أخرى هي الاقطاع، حيث اقطع معظمه، حتى ان السلطان محمود السلجوقي نفسه لم يكن له أعمال وبطل ديوانه، إذ لم يبق للديوان من عمل سوى مصادرة اموال ذوي اليسار (٨).

وإزاء ذلك تفنن الأمراء المحليون في فرض الضرائب الكيفية على الأهالي. وكانت (المكوس) اهم هذه الضرائب وكانت تعتبر - آنذاك - علامة الظلم، حتى أن السلطان محمد - لدى وصوله بغداد عام ٥٠١هـ - قام بمحاولة للتقرب الى رعيته، فأمر برفع المكوس وإبطال رسومها عن التجار والمسافرين في جميع بلاده، وحظر على عماله وموظفيه تناول اليسير منها. ولكنه ما أن عاد الى أصفهان حتى طمع كبار الأمراء والموظفين بالتجار، واستأنفوا فرض المكوس عليهم مخالفين بذلك أوامر السلطان السلجوقي، لولا أن هذا أكد أوامره من جديد في إبطال تلك الضريبة. وحذر من مخالفته في سائر البلاد (٩).

(٨) عمادالدين الاصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق (أختصره البنداري) ص١٢٣

(٩) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص١٦٢، ابو الفدا: المختصر ١٤٩/٤.

وكانت الموصل والبلاد المجاورة تعاني من هذه الضريبة وغيرها، بدليل أنها استمرت في عهد زنكي، ولم ترفع نهائياً الا في عهد ابنه نورالدين محمود عام ٥٦٧هـ، وكانت هذه الضريبة قد بلغت في مدينة الموصل مقداراً كبيراً(١٠) هذا فضلا عن الضرائب الثابتة كالجزية والخراج والتي كانت—في كثير من الأحيان تذهب لصالح الولاة(١١).

وقد أثرت هذه العوامل جميعاً، وأدت الى وقف تزايد سكان الموصل، وعدم اتساع دائرتهم السكنية، وقد استمرت الامور تجري على هذا المنوال طيلة عهد الولاة، ولم يحدث تبدل واضح الا بعد مجيء زنكي، حيث عمر البلاد، فامتلأت أهلا وسكاناً(١٢)، وبدأت الموصل تشهد هجرة اليها من المناطق الاخرى(١٣) مما أدى الى تحويل المدينة قليلة السكان، الى عاصمة لأقوى إمارة شهدها الربع الثاني من القرن السادس الهجري.

ولم تتمتع الموصل في عهد الولاة بأستقلال عسكري يذكر، بل على العكس، كانت في هذه الفترة قاعدة للتحركات العسكرية بأمر السلاجقة سواء للاسهام في الصراع بين السلاطين من أجل الحكم او لقتال الصليبيين ووقف خطرهم الزاحف. وقد حققت الموصل في كلتا الحالتين نتائج هامة.

ثم تأتي الناحية السياسية، فاذا بالموصل—في هذا العهد—تخطب رسمياً للسلاجقة، تارة للسلطان السلجوقي في أصفهان وبغداد، وتارة أخرى لسلطان المناطق الشمالية والشرقية من الدولة السلجوقية، حسب الاتفاق بين السلاطين المتنازعين(١٤). ولم يقف الامر عند حد العلاقة الرسمية بل تعداه الى الناحية الفعلية، حيث كانت

---

(١٠) انظر ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ١/٢٧٥-٢٧٦ (للاطلاع على اصلاحات نورالدين زنكي المالية). وانظر أيضاً ابن الاثير: الباهر ص١٥٤، الكامل ١١/١٤٧

(١١) ابن الجوزي: المنتظم ٩/١١٢.

(١٢) ابن الاثير: الكامل ١١/٤٥

(١٣) ابن الاثير: الباهر ص٧٧

(١٤) سبط بن الجوزي: مرآة الزمان ٨/٨، الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية ص٧٨.

الموصل تخضع تارة لسلطان فارس والعراق، وتارة أخرى تغدو ضمن اقطاعات الملك السلجوقي الحاكم في الجهات الشمالية من بلاد فارس والعراق والشام. ففي الصراع الذي جرى بين السلطان محمود وبين عمه سنجر ـ سلطان خراسان وما وراء النهر ـ والذي انتهى بانهزام محمود وتنازله لعمه، رأى هذا ان يكرم أخيه، فأقطعه من البلاد الجهات الشمالية من بلاد فارس والعراق والشام، وبضمنها منطقة الموصل والجزيرة، وأصدر سنجر منشوراً بذلك(١٥).

(١٥) ابو شامة، الروضتين ١/٧١.

كربوقا: السياسة الداخلية:

اشتهر ولاة الموصل، ولمعت أسماء معظمهم في هذا العهد، ليس بسبب جهادهم ضد الصليبيين فحسب، بل لأن نهم لعبوا دوراً هاماً في الصراع المستمر بين سلاطين وملوك السلاجقة، كما قام بعض هؤلاء الولاة بنشاط واسع في المنطقة. وإنشاء علاقات مختلفة مع أصحاب الامارات الكثيرة المنتشرة في هذه الجهات. والوالي السلجوقي الاول الذي شهدته الموصل بعد سقوط آخر أمير عقيلي هو قوام الدولة أبو سعيد كربوقا او (كربوغا)، حيث أرسل السلطان بركياروق عام ٤٨٩هـ=١٠٩٥ م رسوله الى رضوان بن تتش السلجوقي أمير حلب بإطلاق سراح كربوقا وأخيه التونتاش من السجن. وكان هذان محبوسين منذ ما يقرب من سنة بسبب موقفهما من الصراع بين تتش حاكم الشام السلجوقي وبين السلطان بركياروق الذي اراد تتش انتزاع السلطة منه. ولما قتل تتش واستولى ابنه رضوان على حلب أبقى كربوقا وأخاه في السجن لحين ورود امر بركياروق بإطلاق سراحهما. وما أن غادرا السجن حتى استطاعا ـ كعادة قادة التركمان في تلك الفترة ـ أن يجمعا حولهما الكثير من الجند الذين لم يكن لهم من عمل آنذاك، وتقدما الى حران وأستوليا عليها، وعند ذلك كاتبهما محمد بن شرف الدولة العقيلي من نصيبين يستنجد بهما على أخيه علي بن شرف الدولة، الذي كان تتش قد عينه على الموصل اثر استيلائه عليها. فتوجه كربوقا وأخوه الى نصيبين، حيث استقبلهما محمد عند اسوارها واستحلفهما لنفسه، ولكن كربوقا سرعان ما نقض الحلف وقبض على حليفه وتقدم الى نصيبين مؤملا الاستيلاء عليها عن طريق التهديد بأميرها الأسير. الا أن نصيبين امتنعت عليه، فحاصرها أربعين يوماً، وتمكن أخيراً من الاستيلاء عليها. ثم أتجه ـ بعد ذلك ـ الى الموصل وضرب حولها الحصار الا انه لم يحقق أي نتيجة فتركها باتجاه (بلد) شمالي الموصل، حيث قتل محمد بن شرف الدولة والقى جثته في نهر دجلة، ثم عاد الى الموصل ثانية ليحاصرها من جديد. وسرعان ما استنجد علي

بن شرف الدولة بالأمير شمس الدولة جكرمش صاحب جزيرة ابن عمر شمالي الموصل، فاستجاب هذا لنجدته، وتقدم لقتال قوات كربوقا وأخيه. الا أنه انهزم عائداً الى جزيرة ابن عمر. ولم يلبث كربوقا ان استماله، واتخذه حليفاً له ضد الموصل(١).

اشتد الحصار على الموصل، وانعدمت الاقوات ومواد الوقود. مما اضطر الاهالي الى ايقاد القير وحب القطن. فلما ضاق الامر بصاحبها علي تركها وتسلل خارجاً صوب الحلة مستجيراً بالأمير صدقة بن مزيد هناك. ومن ثم استولى كربوقا على الموصل بعد حصار دام تسعة أشهر. وعم الخوف أهالي المدينة لانتشار شائعات مفادها أن أخاه التونتاش يسعى لنهبهم، وان كربوقا يقف حائلا دون ذلك مما اضطر التونتاش الى القاء القبض على أعيان البلد ومطالبتهم بالودائع والأموال التي جمعوها خلال الحصار، واستطال التونتاش على أخيه، فرأى هذا نفسه مضطراً الى اصدار امره بقتله، فقتل التونتاش في اليوم الثالث من الاستيلاء على المدينة وتخلص السكان من تجبره، ومن ثم أحسن كربوقا السيرة في أهالي الموصل. ولم يكتف بما حققه من نصر بل سعى لتحقيق انتصارات أخرى، فتوجه صوب الرحبة(على شاطىء الفرات أسفل قرقيسيا)للاستيلاء عليها فصمدت له، الا أنه تمكن أخيراً من الاستيلاء عليها ونهبها وتعيين نائب له فيها، وعاد الى الموصل(٢). وتمكن بعد فترة قصيرة من الاستيلاء على ماردين —أهم موقع في ديار بكر شمالي الجزيرة—فامتدت أطراف إمارته، وعظم شأنه،

---

(١) ابن الاثير: الكامل ١٠/٩٦، الباهر ص١٥، ابو شامة: الروضتين ١/٦٧، ابن واصل: مفرج الكروب ١/٢٨، ابو الفدا: المختصر ٤/١٢٢—١٢٣، الذهبي: المبرفي خبر من غبر ٣/٣٢٤، ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/١٩٥، ابن خلدون: تاريخ ٥/١٧، ولا تقدم لنا المصادر، آنفة الذكر، شيئاً مفصلا عن شخصية كربوقا أو ماضيه سوى الإشارة الى أنه كان من قادة السلطان السلجوقي بركياروق وأن هذا ارسله الى الشام عام ٤٨٧هـ لإسناد آق سنقر، حاكم حلب، ضد عمه تاج الدولة تتش، لدى ثورته ضد بركياروق للمطالبة بالسلطنة لنفسه.

(٢) انظر مصادر الهامش السابق.

خاصة وانه كان ينوب عن السلطان السلجوقي بركياروق في المنطقة ويعلن له الطاعة(٣).

لعب كربوقا دوراً مهماً في تربية الأمير عمادالدين زنكي والعناية به—إذ كان كربوقا من مماليك اني زنكي: قسيم الدولة اق سنقر حاكم حلب ٤٧٩—٤٨٧هـ، فلم ينس فضله عليه، فاستدعى مماليك اق سنقر وطلب منهم إحضار زنكي بين يديه قائلا لهم: هو ابن أخي وأنا أولى الناس بتربيته. فأحضروه عنده لكي يشرف بنفسه على تربيته، فضلا عن أنه استعان في حروبه بمماليك أبيه آق سنقر، الذين كانوا يمتازون بالشجاعة والاقدام، وأقطعهم الاقطاعات الواسعة(٤)، وقد كان لهؤلاء المماليك دور مهم في المعارك التي خاضها كربوقا ضد بعض المواقع في ديار بكر(٥).

أسهم كربوقا على نطاق واسع في الصراع الذي كان يدور باستمرار بين سلاطين السلاجقة وملوكهم من أجل الاستئثار بالحكم، او الحصول على مزيد من المواقع. ولم يتخذ كربوقا موقفاً واحداً إزاء هذا الصراع، وإنما كان ينتقل من معسكر الى آخر باحثاً عن السلطان المنتصر لينضم اليه ويعمل تحت لوائه، ولعل مما يبرر موقفه المتأرجح هذا كونه تابعاً للسلاجقة يأتمر بأمرهم، فكان لابد له من إطاعة السلطان الأقوى لكيلا ينال عقاب المتمردين.

وقد شهد عام ٤٩٢هـ=١٠٩٩م، إحدى جولات الصراع بين السلطانين محمد، الذي كان يحكم الجهات الشمالية من الدولة السلجوقية، وبركياروق سلطان فارس والعراق، وانضم كربوقا الى محمد فيمن انضم اليه من أمراء الأطراف، وشعر محمد بمدى قوته، فأرسل الى بغداد يطلب أن يخطب له فيها، فتم له ما أراد، وخطب له على منابرها في السابع عشر من ذي الحجة عام

---

(٣) ابن الاثير: الباهر ص١٥.

(٤) ابن الاثير: الباهر ص١٥—١٦.

(٥) المصدر السابق: نفس الصفحة، الكامل: ١٠/١٤٦، ابو شامة: الروضتين ١/٧.

٤٩٢هـ(٦)،وفي العام التالي أخذ بركياروق يتراجع في بلاد فارس ازاء تقدم أخيه محمد،وعندما اجتمع حوله عدد من الامراء والاجناد سعى للقاء أخيه، ودارت المعركة بينهما في الثالث من جمادى الاخرة عام ٤٩٤هـ=١١٠٠م، حيث انتصر بركياروق وانهزم محمد بعد أن تفرق عنه معظم عسكره.ولما فرغ بركياروق من هذه المعركة توجه الى الري،حيث اجتمع اليه هناك كربوقا وعدد من الأمراء.وصادف أن أعلن الملك السلجوقي مودود بن اسماعيل تمرده في أذربيجان،فوجه اليه بركياروق جيشاً قوامه عشرة الاف فارس عهد بقيادته الى كربوقا.وقد تقدم هذا صوب اذربيجان،وحقق مهمته بنجاح، حيث تمكن من الاستيلاء على معظمها،الا أن مرضه حال دون انجاز هذه المهمة،فأوصى بولاية الموصل لأحد امرائه المدعو(سنقرجه)وأمر الاتراك بطاعته وما لبث كربوقا ان توفي في ذي القعدة من عام ٤٩٥هـ=١١٠١م فتوجه سنقرجه على رأس قواته صوب الموصل،وتسلم مهام الحكم فيها(٧).

كان أعيان الموصل قدكاتبوا موسى التركماني،نائب كربوقا فيحصن كيفا (في أقليم ديار بكر)،وطلبوا منه أن يبادر اليهم ليسلموا اليه البلد،فأسرع هذا بالتوجه نحو الموصل،وعندما سمع(سنقرجه)بوصوله خرج مع أهالي البلد لاستقباله ظناً منه أنه جاء ليعلن له الطاعة،ويعمل تحت زعامته.وعند اللقاء جرى بين القائدين حوار تتضح من خلاله طبيعة علاقة الوالي بالسلطان السلجوقي، إذ بين سنقرجه لموسى التركماني:أن قصده من كل ما كان لكربوقا الولاية فحسب،أما الأموال والحكم الفعلي«فله وبحكمه»فكان جواب موسى انه لا أختيار لهما في هذه المسائل،إنما ذلك للسلطان يعين من يريد ويولي من يختار.

وأغلب الظن ان موسى أراد من خلال موقفه هذا تعزيز مركزه ضد سنقرجه بإضفاء طابع الطاعة للسلاجقة والأنقياد اليهم. ولم يطل الحديث بينهما بعد ذلك،

---

(٦) بو الفد:المختصر ٤/١٢٧.

(٧) ابن الاثير:الكامل ١٠/١١٢-١١٣،١٢٧-١٢٨،الباهر ص١٦،ابو الفدا،المختصر ٤/١٣١-١٣٢،ابن الوردي:تاريخ٢/١٣-١٤،ابن خلدون:تاريخ ٥/٢٢،٢٩-٣٠.

إذ حاول سنقرجة قتل موسى، ولكن المحاولة انقلبت عليه فقتل، وتوجه موسى الى الموصل، وأحسن الى أصحاب سنقرجة، ولم يلحق بهم أي عقاب إستمالة لهم، وخوفاً من استفزاز السلطان بروكياروق(٨).

السياسة الخارجية:

كربوقا والحملة الصليبية الاولى:

منذ الايام الاولى لوصول طلائع القوات الصليبية الى مشارف الجزيرة والشام، بدا أن ولاة الموصل السلاجقة سيلعبون دوراً حاسماً ازاء الخطر الجديد، نظراً لطبيعة موقعهم الحصين، بعيداً عن الأخطار المباشرة للهجوم الصليبي، ولكونهم يمثلون حلقة الوصل المباشرة بين القوى السلجوقية التي يتلقون اوامرهم منها، وبين الامارات الاسلامية المنتشرة في الجزيرة والشام، والتي وقع على عاتقها عبء التصدي للهجوم الجديد. لذا فانه ما أن رأى ياغي سيان صاحب أنطاكية أن مدينته غدت قاب قوسين او ادنى من الزحف الصليبي حتى كان كربوقا، حاكم الموصل(٤٨٩–٤٩٥)في مقدمة اولئك الأمراء الذين بعث يستنجد بهم لايقاف ذلك الزحف قبل ان تحل الكارثة بالمسلمين، ويجد اعداؤهم موطن قدم لهم في بلاد الشام.

ومنذ تلك اللحظة، وحتى ظهور عمادالدين زنكي عام ٥٢١هـ، وتأسيس إمارته الشهيرة في المنطقة، راح ولاة الموصل يدلون بدلوهم في مجرى الصراع العنيف الذي شهدته الجزيرة والشام، والذي شبت ناره بين المسلمين والصليبيين. وكان موقف أولئك الولاة يتراوح بين القوة والضعف، استناداً الى الظروف المرحلية التي كان الصراع يجتازها، والى طبيعة العلاقات المتغيرة، التي كانت تتحكم في كثير من الأحيان بسياسة الأمراء والحكام المسلمين. فكنا نجد بعض ولاة الموصل يأخذون على عاتقهم مهمة قيادة حركة الجهاد، وتجميع القوى الاسلامية لتحقيق هذا الغرض، ونجد بعضهم الاخر يكتفي بعقد محالفات

(٨) ابن الاثير: الكامل ١٠/١١٢–١١٣، ١٢٧–١٢٨، الباهر ١٦، أبو الفدا: المختصر، ٤/١٣١–١٣٢، ابن خلدون: تاريخ ٥/٢٩–٣٠، ٢١١.

متكافئة مع أمراء مسلمين آخرين للعمل المشترك ضد أعدائهم. كما كنا نجد فئة أخرى من الولاة لا يكتفون بالوقوف سلبيين ازاء ما يجرى من أحداث، بل أن أحدهم وهو (جاولي سقاو) سعى للتحالف مع الصليبيين انفسهم من أجل حماية نفسه من غضب السلطان السلجوقي وأنصاره، أو من أجل تحقيق مكسب شخصي جديد.

وفي كل الاحوال كان ولاة الموصل يمسكون بقلم الاحداث بقوة، ليرسموا لها تياراتها ومصائرها، فيما عداتلك السنوات (٥١٣-٥١٨هـ) التي برز في المنطقة خلالها قادة الاراتقة كقوة رائدة في ميدان الجهاد. وقد جاء ذلك في الوقت الذي كان بعض ولاة الموصل يجتازون خلاله سلسلة من المناورات والحروب السلجوقية، الامر الذي وضع الموصل في الظل، وعزلها فترة من الزمن عما كان يجري في الاراضي البعيدة عنها من صراع بين المسلمين والصليبيين.

ما أن تلقى كربوقا نبأ هجوم الصليبيين على أنطاكية، واستنجاد صاحبها به؛ حتى جمع قواته وتوجه صوب الفرات(١)، دون ان يتمهل لاستئذان السلطان السلجوقي في تحركه الذي قد يجر نتائج حاسمة على الدولة السلجوقية ذاتها، لكنه سرعان ما أضاع كسبه هذا لعامل الزمن عندما توقف أسابيع طوال عند أسوار الرها في محاولة لاجتياحها، وقد كان بلدوين قائد الحملة الصليبية في الجزيرة، لايزال في تل باشر (شمالي حلب) عندما قدمت اليه سفارة من الرها في مستهل السنة الجديدة (١٠٩٨م=٤٩١هـ) إذ أستبد القلق بتوروس الارمني حاكم الرها حول وصول الصليبيين، بعد أن شهد تمهلهم على الضفة الغربية لنهر الفرات. كان مركزه دائماً بالغ الحرج، إذ أرتاع لما بلغه من أنباء حشد كربوقا أمير الموصل المعروف بخطورته وشدته، جيشاً ضخماً، استعداداً لنجدة أنطاكية، وقدرته على ان يمحو في سهولة ويسر، الرها وسائر الامارات الارمنية الواقعة في طريقه. الا أن بلدوين لم يجازف بالذهاب الى الرها الا بالشروط التي تلائمه... واضطر توروس أخيراً الى اعلان تبنيه للقائد الصليبي واتخاذه وريثاً شرعياً وقسيماً له في حكم بلاده(٢).

(١) ابن العديم: زبدة الحلب ١/١٣-١٣٣، ابن الاثير: الكامل ١٠/١٠٢.

(٢) ستيفن رنسمان: تاريخ الحروب الصليبية ١/٢٨٩ (ترجمة السيد الباز العريني)

لم يغب عن المسلمين عامة، وكربوقا على وجه الخصوص، حقيقة أن أمير الرها الصليبي الجديد سرعان ما غدا قوة لابد من الاهتمام بأمرها، لذا أجمعوا على تدميره قبل ان يستفحل خطره. ويتضح مدى عزم المسلمين على تحقيق هذا الهدف في توقف كربوقا عند أسوار الرها لدى مسيره لنجدة أنطاكية، وذلك للتخلص من بلدوين. ولم يتخل عن هدفه الا بعد ان ظل ثلاثة أسابيع يهاجم أسوار الرها دون جدوى. وأدى فشله الى ارتفاع مكانة بلدوين وهيبته، كما ان ما أضاعه كربوقا من وقت أنقذ الحملة الصليبية الأخرى التي كانت تستهدف أنطاكية آنذاك(٣).

أستانف كربوقا مسيره صوب أنطاكية، وما لبث السلاجقة أن أعلنوا عن مساندتهم له، ووعدوه بالمساعدة. وفي مرج دابق، «اجتمعت معه عساكر الشام تركها وعربها سوى من كان بحلب، فأجتمع معه دقاق حاكم دمشق، وأتابكه طغتكين وجناح الدولة صاحب حمص، وارسلان تاش صاحب سنجار، وسليمان بن ارتق أحد أمراء الاراتقة، وغيرهم من الأمراء ممن ليس مثلهم. فلما سمعت الفرنج عظمت المصيبة عليهم، وخافوا لما هم فيه من الوهن، وقلة الأقوات عندهم»(٤).

كان الصليبيون آنذاك قد أحكموا تطويق أنطاكية، وازاء ذلك حشد ياغي سيان داخل الحصن كل ما لديه من قوات، وعزز استحكامات المدينة الدفاعية، وشرع في توفير ما يكفيه من المؤن لحصار طويل. ولم يسع الصليبيون، وقد أحسوا

(٣) المصدر السابق ١/٢٩٩ (وانظر ابن العديم: زبدة الحلب ٢/١٣٠ حيث نجده يقدم رقماً مبالغاً فيه لقوات تلك الحملة اذ يقدرها بثلاثمائة وعشرين الف مقاتل. وتتضح هذه المبالغة اذا ما قارنا هذا بالرقم الذي اورده رنسمان عن عدد القوات الاسلامية - نقلا عن المصادر الفرنجية حيث يقول «والراجح ان جيش كربوقا بلغ عدده نحو ثلاثين الف رجل، غير انه ليس لدينا دليل قاطع. وكان بوسعه ان يبلغ من الكفاية في حصار انطاكية ما لم يبلغه الجيش الصليبي» تاريخ الحروب الصليبية ١/٢٨٩

(٤) ابن الاثير: الكامل ١٠/١٠٢، ابن العديم: زبدة الحلب ٢/١٣٣، ابن تغرى: النجوم الزاهرة ٥/١٤٧-١٤٨.

باحتمال وقوعهم بين شقي الرحى: ياغي سيان من الداخل وكربوقا وحلفاؤه من الخارج. الا أن يعززوا هجومهم بالقيام بنشاط سياسي واسع النطاق استهدف تمزيق وحدة المسلمين وكسب بعض قادتهم، فدخلوا في مفاوضات مباشرة مع الفاطميين حصلوا من خلالها على عدد من النتائج المهمة لصالحهم، بعد أن وعدهم حلفاؤهم الجدد بالعمل سوية من أجل أقتسام بلاد الشام. كما أنهم بعثوا الى دقاق أمير دمشق يطلبون منه التزام الحياد، وأعلموه بأنهم لم يتخذوا خططاً لمهاجمة بلاده. الا أن دقاق لم يستجب لرغباتهم نظراً لرجوع أخيه ومنافسه رضوان حاكم حلب الى سابق حياده(٥).

ظل ياغي سيان صامداً في أنطاكية، رغم ما تعرض له من ضغط شديد، وازداد التوتر بين الصليبيين. إذ أدركوا أنهم ما لم يستولوا أولا وقبل كل شيء على المدينة فسوف يجري تحطيمهم لوقوعهم بين حامية المدينة والجيش الضخم القادم لانقاذها، وبعثوا الى الامبراطور البيزنطي الكسيوس نداءاً حاراً يلتمسون نجدتهم. واستبد القلق والضيق ببوهمند بصفة خاصة، لحرصه وعزمه على استخلاص أنطاكية لنفسه، فإذا ما حدث ووصل الامبراطور قبل سقوطها. أو إذا لم يتيسر هزيمة كربوقا الا بمساعدة الامبراطور، صار من المستحيل الامتناع عن رد أنطاكية الى الامبراطورية البيزنطية. على ان ما ارتكبه كربوقا من أخطاء في التقدير، هيأ للحملة الصليبية الفرصة للتنفس والراحة. إذ لم يشأ كربوقا — كما رأينا — أن يزحف على أنطاكية ومن خلفه جيش صليبي في الرها يهدد جناحه الأيمن. ولم يدرك ان بلدوين، أمير الرها، بلغ من شدة الضعف أن غدا ليس بوسعه القيام بالهجوم، بل اعتقد انه بلغ من القوة في حصنه المنيع ما لا يسهل طرده منه. ولم يقرر كربوقا أن ما بذله من جهد، وأنفقه من وقت. إنما ضاع سدى، الا بعد أن أمضى الأسابيع الثلاثة الأخيرة امام الرها يحاول عبثا مهاجمة أسوارها. وفي أثناء تلك الاسابيع الثلاثة القيمة أمعن بوهمند في

---

(٥) رنسمان ٣٢٦/١

العمل واستطاع ان يوطد صلته بأحد القادة داخل مدينة أنطاكية وأسمه فيروز وهو ليس الا أرمنياً أعتنق الاسلام وارتقى الى وظيفة عالية في حكومة ياغي سيان. وعلى الرغم من تظاهره بالولاء لسيده، فانه كان شديد الحقد والبغضاء له، لانه فرض عليه أخيراً غرامة لاختزانه القمح. فاتصل فيروز باخوانه السابقين في الدين (الارمن) وعن طريقهم وصل الى تفاهم مع بوهمند، وافق بمقتضاه على أن يبيع المدينة له. على أن سر الصفقة ظل محفوظاً، فلم يبح به بوهمند لأحد، بل أنه بدلا من ذلك صار يؤكد علناً ما سوف يواجه الصليبيين من أخطار، كيما يزيد من قيمة انتصاره المقبل(٦).

أخذت قوات كربوقا تقترب من أنطاكية شيئاً فشيئاً، وأخذ الذعر يسود معسكر الصليبيين، وصار يتسلل منه عساكر بلغت من كثرة العدد انه غدا من العبث محاولة منعهم. وكان بضمنهم ستيفن بلوا قائد جماعة كبيرة من عساكر شمال فرنسا. الا أن مؤامرة فيروز ما لبثت أن أتت أكلها، وانثالت قوات الصليبيين — وفق خطة متفق عليها — الى داخل المدينة، حيث ساعدهم المسيحيون والارمن المحليون، وقتلوا عدداً كبيراً من المسلمين. واضطر ياغي سيان الى الفرار، حيث قتله احد الارمن أثناء سقوطه عن فرسه في احدى المرتفعات. أما ابنه شمس الدولة فقد لجأ الى القلعة واعتصم بها. ولم يفلح الهجوم الذي شنه بوهمند على القلعة، وأعقبه بما هو أسهل، حيث راح وقواته ينهبون شوارع المدينة ويستبيحونها. حتى لم يبق في أنطاكية من الترك أحد من الأحياء يجرؤ على الظهور.. وعادت أنطاكية مسيحية مرة أخرى. وما أن وصل الى البلاد المجاورة خبر الفوضى والخراب الذين حلا بأنطاكية اثر دخول الصليبيين، حتى هرب المسلمون منها وتسلمها الارمن(٧).

---

(٦) المصدر السابق ١/٣٢٧-٣٢٩، ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص١٣٥، ابن العديم: زبدة الحلب ٢/١٣٣-١٣٥.

(٧) رنسمان ١/٣٢٩-٣٣٤
ابن القلانسي: المصدر السابق ص١٣٥، ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/١٥٦.

ما ان علم كربوقا وحلفاؤه بنبأ استيلاء الصليبيين على أنطاكية، حتى غادروا مواقعهم في مرج دابق، واتجهوا الى ارتاح على طريق أنطاكية، وانطلق بعضهم الى جسر الحديد—شمال شرق أنطاكية—وقتلوا من كان معسكراً فيه من الصليبيين. وما لبثت القوات الاسلامية أن عسكرت قريباً من أسوار أنطاكية في السادس من رجب، فانسحب من كان مقيماً بظاهر البلد من الصليبيين الى الداخل، واكتشف المسلمون أن القلعة لا زالت مستعصية على الغزاة(٨).

جابه الصليبيون إثر دخولهم المدينة مشاكل عدة أهمها: لمن تكون أنطاكية؟ ولكنهم لم يكن لديهم اول الأمر وقت لمناقشة ذلك، إذ كان كربوقا يزحف بجيوشه، ولابد من الدفاع عن المدينة ازاء الهجوم الحادث. ومهما وضع بوهمند من خطط، فالواقع انه لم يتوافر له من العساكر ما يكفي لحراسة الأسوار، الا بمساعدة رفاقه، فالتزم كل واحد منهم بالدفاع عن قطاع من الاستحكامات. والواضح ان الصليبيين استطاعوا ان يستقروا في المدينة قبيل قدوم كربوقا. وما ان القى هذا القائد رحاله عند الاسوار حتى بادر شمس الدولة بن ياغي سيان بان بعث اليه من القلعة يطلب منه المساعدة. غير أن كربوقا أصر على انه لابد لعساكره ان يحوزوا القلعة. والتمس منه شمس الدولة ان يحتفظ بالقيادة، حتى يتم استرداد المدينة، غير ان توسلاته ضاعت سدى، فلم يسعه الا ان يسلم الحصن وكل مخازنه الى نائب كربوقا الأمين أحمد بن مروان(٩).

ما لبث المسلمون ان بدأوا القتال بأن شنوا هجوماً على البلد من ناحية القلعة، استهدف كربوقا من ورائه النفاذ الى البلد عن طريق القلعة. وقاتل المسلمون الصليبيين «الذين أشرفوا على التلف» الامر الذي دفعهم الى بناء سور لمنع أتصال القلعة بأستحكامات المدينة، وصد محاولات المسلمين لاستغلال نقطة الضعف هذه والتسرب الى المدينة(١٠). وما لبث أحمد بن مروان أن قام باختبار هذا

---

(٨) ابن العديم: زبدة ٢/١٣٦.

(٩) رنسمان ١/٣٣٦—٣٣٧، ابن العديم: زبدة ٢/١٣٦—١٣٧.

(١٠) ابن العديم: زبدة ٢/١٣٦—١٣٧، رنسمان ١/٣٣٧.

القطاع وبادر بتوجيه هجومه عليه، وكاد يتغلب على الصليبيين، غير انهم استطاعوا آخر الامر ان يردوه على أعقابه وان يكبدوه خسائر فادحة. على ان كربوقا قرر اثر ذلك ان من دواعي الاقتصاد في النفقات ان يضيق الخناق على اعدائه ويشتد في حصارهم، ثم يوجه اليهم ضربته حين يضعفهم الجوع. ومن ثم تحرك كي يتم تطويق المدينة، وحاول الصليبيون ان يمنعوه من ذلك. فقاموا بهجوم عنيف ضده، غير أنهم لم يلبثوا ان ارتدوا واحتموا بالاسوار(١١).

استبد بالصليبيين القنوط واليأس، بعد أن فشلت جهودهم، فالروح المعنوية التي ارتفعت منذ اسبوع بالاستيلاء على المدينة، لم تلبث ان هوت الى أحط درك. أخذ الطعام ينفد من جديد، وغلت الاسعار غلاء فاحشاً. واضطر الجند الى أكل الميتات(١٢).. وظن عدد كبير من الفرسان ان ستيفن بلوا. القائد الفرنسي لم يتخذ بفراره الا أحسن السبل وأسلمها، فتسللوا الى البحر هم الاخرون.. واعتقد الامبراطور البيزنطي الكسيوس. انه إذا ما استولى الترك على أنطاكية. وهلك الصليبيون فمن المحقق ان الترك سوف يمضون في الهجوم. ولاشك ان السلاجقة سوف يحاولون استرداد ما فقدوه من الاراضي. وسوف يساندهم كل العالم التركي المظفر من ورائهم، ومن ثم قفل عائداً الى الشمال مكتفياً بما استولى عليه من أراضي الترك هناك(١٣).

واصل كربوقا ـ خلال ذلك ـ ضغطه على أنطاكية. وقام بهجوم مفاجيء كاد يجعله يستولي على احد الحصنين المقامين على السور الواقع جهة الجنوب الغربي من المدينة، ولم يحفظ هذا الحصن الا بسالة ثلاثة من فرسانه(١٤).

ما لبثت اسطورة الحربة المقدسة ان راجت في معسكرات الصليبيين، فرفعت من روحهم المعنوية، في وقت كانوا فيه على وشك الاستسلام لليأس الكامل.

---

(١١) رنسمان ١/٣٣٨-٣٣٩.

(١٢) المصدر السابق ١/٣٣٨-٣٣٩، ابن العديم: زبدة ٢/١٣٦-١٣٧، ابن كثير: الكامل ١٠/١٠٣

(١٣) رنسمان ١/٣٣٨-٣٤١

(١٤) رنسمان ١/٣٤٢-٣٤٣.

فقد ادعى بطرس بارثولوميو احد الخدام الذين قدموا مع الحملة الصليبية، انه شاهد حلماً عن موضع الحربة التي اخترقت جنب المسيح عليه السلام. وقصها على الأمراء الصليبيين. ففتشوا عنها ووجدوها في ذات المكان الذي كان قد وضعهابطرس نفسه فيه.. يقول ابن الاثير «وكان مع الفرنج راهب مطاع فيهم، وكان داهية من الرجال. فقال لهم ان المسيح (عليه السلام) كان له حربة مدفونة بالقسيان الذي بأنطاكية، وهو بناء عظيم، فان وجدتموها فانكم تظفرون، وإن لم تجدوها فالهلاك محقق. وكان قد دفن قبل ذلك حربة في مكان فيه وعفا على أثرها وأمرهم بالصوم والتوبة، ففعلوا ذلك ثلاثة ايام. فلما كان اليوم الرابع ادخلهم الموضع جميعهم ومعهم عامتهم والصناع منهم وحفروا في جميع الأماكن. فوجدوها كما ذكر، فقال لهم ابشروا بالظفر. فخرجوا في اليوم الخامس من الباب متفرقين» (١٥). ومن ثم أعلن بوهمند ان الخطة الوحيدة أمام الصليبيين هي انه لابد لهم من القيام بهجوم شامل على معسكر كربوقا. وبينما ازداد الصليبيون معنوية وتماسكاً واملا. اخذ حلف كربوقا يتعرض لتمزق خطير بسبب عدم مرونته من جهة. والاحقاد الشخصية التي تناوشت حلفاءه. وما رافقها من شكوك، من جهة أخرى.

فعندما كانت رسل رضوان امير حلب تترى على كربوقا، امتلأ قلب أخيه وغريمه دقاق غيظاً، وتوهم ان هذه الاتصالات تستهدفه شخصياً، فضلا عن انه كان يحرص على مغادرة أنطاكية والعودة الى الجنوب بسبب اعتداء الفاطميين على فلسطين. وكان هناك عداءاً سرياً مستحكماً بين اميري حمص ومنبج، استحال معه حدوث اي تعاون أو تنسيق بين قواتهما. وحدثت منافرات بين الترك، وبين العرب التابعين للامير العربي، وثاب بن محمود، انسحبوا على أثرها، كما تفرق كثير من الترك بتحريض من رضوان (١٦). «واساء كربوقا السيرة

---

(١٥) ابن الاثير: الكامل ١٠/١٠٣، ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص١٩٦-١٩٧. انظر التفاصيل الدقيقة لقصة الحرب المقدسة في: رنسمان ١/٣٤٣-٣٤٨، وانظر مناقشة هذا الادعاء وتفنيده: نفس المصدر ١/٣٤٩).

(١٦) ابن العديم: زبدة ٢/١٣٦-١٣٧، رنسمان ١/٣٥٠

فيمن معه من المسلمين،واغضب الامراء وتكبر عليهم ظناً منه انهم يقيمون معه على هذه الحال،فأغضبهم ذلك وأضمروا له في انفسهم الغدر اذا كان القتال»(١٧)،وإذا كنا نستطيع التماس بعض الاعذار لتصرفات كربوقا الذي سعى الى استغلال سلطته،واستخدام اساليب الشدة من اجل تماسك حلفه، الا أننا لا يمكن ان نجد أي عذر لتصرفات سائر حلفائه من الأمراء الذين نسوا هدفهم المشترك،ولم تكن تهمهم في تلك الساعات الحرجة سوى مصالحهم الخاصة،وشفاء أحقادهم المتأصلة.

لم تكن متاعب كربوقا مجهولة لدى قادة الصليبيين الذين حاولوا ان يحملوه على التخلي عن الحصار.فأنفذوا الى معسكره سفارة مؤلفة من بطرس الناسك وفرنجي يدعى هيرلوين يجيد الحديث باللغتين العربية والفارسية.ولا نعلم شيئاً عن الشروط التي كلف بطرس بعرضها.إذ أن ما أجراه المؤرخون المتأخرون من الاحاديث على لسان بطرس وكربوقا يعتبر من نسيج الخيال.ولعل من الاقتراحات ما اورده اولئك من انه قد يحسم الموقف القيام بسلسلة من المبارزات الفردية.الا أن كربوقا ظل مصراً على وجوب استسلام الصليبيين دون قيد او شرط على الرغم من تزايد ضعف جيشه(١٨)وقال للسفراء«لا تخرجون الا.. بالسيف»(١٩)وهكذا خسر كربوقا هذه الفرصه الثمينة.وعادت السفارة دون ان تتوصل الى شيء.غير أنه في أثناء قيامها بمهمتها وقف هيرلوين،فيما يبدو، على معلومات بالغة الاهمية عن مجرى الامور في المعسكر التركي.وإذ فشلت السفارة غدا لا مفر من القتال...عبأ بوهمند قواته للقتال حيث قسمهم الى ستة جيوش،وللمحافظة على القلعة ومراقبتها تقرر إبقاء مائتي عسكري بالمدينة يتولى قيادتهم ريموند من فراش مرضه.(٢٠)

---

(١٧) ابن الاثير:الكامل ١٠/١٠٢

(١٨) رنسمان،١/٣٥١.

(١٩) ابن الاثير:الكامل ١٠/١٠٣.

(٢٠) رنسمان ١/٣٥١-٣٥٢.

ما أن بدأ الصليبيون يتسللون فرادى الى خارج اسوار أنطاكية، على مرأى من قوات المسلمين حتى تقدم القائد العربي وثاب بن محمود، وعدد من قادة المسلمين الى كربوقا وقالوا له: «ينبغي أن تقف على الباب فتقتل كل من يخرج فان امرهم الان وهم متفرقون سهل» فأجابهم قائلا: «لا تفعلوا، امهلوهم حتى يتكامل خروجهم، فنقتلهم»، ومن ثم اصدر أمراً يمنع فيه قواته من معاجلتهم. وعندما قام جماعة من قواته بقتل بعض الخارجين من الفرنج، جاء اليهم بنفسه ومنعهم ونهاهم، معتقداً ان بإمكان المسلمين إنزال ضربة ماحقة بأعدائهم في اللحظة التي يتم فيها خروجهم من أنطاكية(٢١) فضلا عن انه خشي، إذا ما أسرع بقتالهم، ان لا يتمكن سوى من سحق مقدمتهم. أما اذا انتظر فانه سوف يتخلص بضربة واحدة من كل القوات الصليبية. وتبين له من سلوك عساكره انه سوف لايتحمل استمرار الحصار المرهق زمناً طويلا. على انه حينما شاهد الصليبيين في كامل عدتهم، اخذ يتردد، وبعث اليهم من قبله رسولا، بعد فوات الاوان، يعرض عليهم انه على استعداد لان يناقش معهم شروط الهدنة. غير ان اعداءه تجاهلوا رسوله ومضوا في تقدمهم(٢٢).

ما ان تم خروج القوات الصليبية ووقوفها ازاء جيوش كربوقا حتى لجأ هذا الى اتخاذ مادرج عليه الترك من خطط حربية، وذلك بالتظاهر بالانسحاب. واستدراج العدو الى ارض بالغة الوعورة حيث قذف رماته صفوف العدو بوابل من السهام. وفي تلك الاثناء بعث بفصيلة من جيشه كي تحيط بقواتهم من ناحية اليسار حيث لم يكن النهر ليحميهم. غير ان بوهمند استعد لذلك فألف جيشاً سابعاً لوقف هذا الهجوم(٢٣).

(٢١) ابن الاثير: الكامل ١٠/١٠٣، ابن العديم: زبدة ٢/١٣٦-١٣٧.

(٢٢) رنسمان: ١/٣٥٢-٣٥٣.

(٢٣) هذا ما تؤكده المصادر الفرنجية التي نقل عنها رنسمان (المصدر السابق ١/٣٥٣) وهو المرجح اعتماداً على سوابق ولواحق هذه الخطة التي كثيراً ما كان الاتراك يعتمدونها في قتالهم. اما ابن العديم فيشير الى ان ذلك الانسحاب السريع لقوات كربوقا لم يكن الا هزيمة توهمها الفرنج مكيدة فكفوا عن مطاردة المسلمين. يقول «انهزم عسكر كربوقا بعد ان عاث التركمان

اشتد القتال في الجبهه الرئيسية، ولم يستطع الرماة الترك وقف زحف الصليبين، واخذت صفوف الترك تضطرب، وامعن الصليبيون في الضغط عليهم ومضوا في زحفهم. وزاد في مساعدتهم ماقرره كثير من امراء كربوقا من التخلي عنه، اذ انهم خافوا انه اذا مااحرز النصر فسوف يصير له من القوة ما سوف يجعلهم اول من يدفع الثمن باهظا. فأخذ جند دقاق امير دمشق يغادرون ساحة القتال، وترتب على ذلك ان ساد الذعر بين قوات المسلمين، فأشعل كربوقا النيران في الحشائش الجافة امام صفوف عساكره كيما يعوق سير الفرنج، دون جدوى، وراح في الوقت نفسه يسعى الى اشاعة الامن في صفوف قواته. ولم يبقى مواليا له الا سقمان بن ارتق وامير حمص. حتى اذا فرا، ادرك ان المعركة خاسرة وانصرف عن القتال. وتداعى كل الجيش التركي ووقع فريسة للفوضى والخوف. واذ اتبع الصليبيون النصيحة التي بذلها احد قادتهم بالا تشغلهم عملية نهب معسكر العدو، اخذوا يطاردون الفارين حتى بلغوا جسر الحديد فقتلوا عددا كبيراً منهم. اما اولئك الذين التمسوا ملاذاً في قلعة انطاكية فجرى تطويقهم ولم يلبثوا ان هلكوا. ولقي كثير من الباقين مصرعهم، اثناء فرارهم، على ايدى السريان والارمن المحليين في الريف... ووصل كربوقا الى الموصل في فلول جيشه مارا بحلب حيث حمل له صاحبها رضوان خياما وطعاما، وضاع الى الابد

فيه، وتوهم الفرنج ان ذلك مكيدة فتوقفوا عن تبعهم فكان ذلك سبباً لسلامة من اراد الله سلامته (زبدة ٢/١٣٦-١٣٧) ويذهب ابن الاثير الى ما ذهب اليه ابن العديم؛ مع اعطاء مزيد من التفاصيل عن أسباب هذه الهزيمة، فيقول« لما تكامل خروج الفرنج ولم يبق بانطاكية احد منهم ضربوا مصافاً عظيماً فولى المسلمون منهزمين، لما عاملهم به كربوقا من الاستهانة بهم والاعراض عنهم، ومنهم من قتل الفرنج وتمت الهزيمة عليهم، ولم يضرب احد منهم بسيف ولا طعن برمح ولا رمى بسهم. وآخر من أنهزم سقمان وجناح الدولة لأنهما كانا في الكمين وانهزم كربوقا معهم، فلما رأى الفرنج ذلك ظنوه مكيدة، اذ لم يجر قتال ينهزم من مثله، و خافوا ان يتبعوهم وثبت جماعة من المجاهدين وقاتلوا حسبة وطلباً للشهادة، فقتل الفرنج منهم الوفا» الكامل ١٠/١٠٣.

ما كان له من سلطة ومكانة.(٢٤).

اما احمد بن مروان نائب كربوقا في قلعة انطاكية فقد فاوض الصليبين واعلن استسلامه لهم، حيث سمح له ولحاميته مغادرة المكان في الثاني من شعبان دون التعرض لاذى(٢٥)وتحول جماعة من اصحابه، وبضمنهم احمد نفسه، الى المسيحية وانحازوا الى جيش بوهمند. وهكذا قرر انتصار الصليبين الحاسم على كربوقا انه لابد ان تبقى انطاكية في حوزة المسيحيين، غير انه لم يقرر ايا منهم تنتقل الى حوزته: الفرنج ام الامبراطور البيزنطي؟(٢٦).

يبدو، لنا، بعد استعراض تفاصيل الدور الذي لعبه كربوقا في مجابهة الهجوم الصليبي على المعاقل الاسلامية الاولى، انه بذل ما في وسعه للتصدي لهذا الخطر قبل ان يتمكن من تثبيت اقدامه في الارض الاسلامية، فلم يأل جهداً في تهيئة كافة العوامل العسكرية: الزمنية والبشرية والفنية، من اجل تحقيق هدفه ذاك. الا ان ظروفاً شديدة التعقيد، اسهم هو بأخطائه السياسية والعسكرية—في تشكيل بعضها، واسهم امراؤه وحلفاؤه—بحرصهم على مكاسبهم الاقليمية، وتغلغل الحقد والتنافس الشخصي بينهم—في تشكيل معظمها، هذه الظروف هي التي احبطت محاولة كربوقا، وانتهت بها الى هذا المصير المفجع الذي كان له تأثيراته السيئة ونتائجه الخطيرة على مستقبل الحرب الصليبية بشكل عام.

فلقد استطاع الصليبيون، اثر هزيمة كربوقا، ان يثبتوا اقدامهم في بلاد الشام. كما كانوا قد ثبتوها قبيل ذلك في منطقة الجزيرة عن طريق الرها، وان يتخذوا من انطاكية—امارتهم الثانية—قاعدة للانطلاق الى الجنوب، وفرض سيطرتهم على المواقع القائمة على الطريق الى القدس. وليس استيلاء الصليبين على القدس،

---

(٢٤) رنسمان ١/٣٥٣-٣٥٤

ابن العديم: زبدة ٢/١٣٦-١٣٨، ابن كثير: الكامل ١٠/١٠٣، ابن القلانسي: تاريخ دمشق ص١٣٦.

٢٥. رنسمان ١/٣٥٤، ابن العديم: زبدة ٢/١٣٧-١٣٨.

(٢٦) رنسمان: ١/٣٥٤.

وانزالهم باهليها تلك المذبحة الرهيبة التي ذهب ضحيتها عشرات الالاف من السكان المجردين عن السلاح، سوى نتيجة مباشرة للهزيمة التي مني بها المسلمون عند اسوار انطاكية. ذلك ان هزيمة كهذه، لم تعط الصليبيين فرصة التماسك والانطلاق ثانية الى اهدافهم فحسب، بل انها أصابت وحدة القوى الاسلامية في المنطقة بضربة قاصمة فمزقتها وشلتها عن العمل المشترك المنسق فترة من الزمن، كان الصليبيون يجتاحون ـ خلالها ـ القرى والمدن والحصون، بينما كان قادة المسلمين يجترون احقادهم ويسعون للحفاظ على اقاليمهم فحسب، في الوقت الذي كان المسلمون فيه قد شدهوا للانتصارات الصليبية المتلاحقة: تلك التي لم تجد، بعد هزيمة كربوقا، اية محاولة جادة لصدها عن المضي صوب هدفها المرسوم.

والحق ان اخطر ما ترتب على هزيمة المسلمين عند انطاكية هو الشلل الذي اصاب سياسة كربوقا وموقفه ازاء الخطر الصليبي الزاحف. فلقد اصابته تلك الهزيمة، بما حدث فيها من بوادر السلبية والانهزام لدى عدد من امرائه. والخيانة المكشوفة لدى عدد اخر، برد فعل شديد صده عن التفكير الجاد في القيام بأية محاولة جديدة لتزعم القوى الاسلامية في المنطقة، والتصدى للزحف الصليبي السريع صوب الشرق والجنوب. الا ان هذه النتائج السالبة جميعا لن تصدنا عن محاولة تلمس ردود الفعل الايجابية التي تمخضت عن هزيمة انطاكية وما اعقبها من انتصارات صليبية، احدثت هزة عنيفة في ضمائر مسلمي المنطقة ونفوسهم، وعمقت وعيهم السياسي، وحركتهم لمطالبة جماعية من القوى الاسلامية الحاكمة ان تتخذ تدابير سريعة لوقف الهجوم الصليبي الامر الذي دفع السلاجقة بعد سلسلة من الضغوط والاضرابات العامة والمظاهرات الحاشدة(٢٧) الى توجيه اهتمامهم صوب تلك الساحة، ومن ثم اتيح لولاة الموصل الذين اعقبوا

(٢٧) انظر على سبيل المثال: ابن الجوزي: المنتظم ٩/١٠٥، ١٠٨، ١٦٥، ابن كثير البداية والنهاية ١٢/١٥٦، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة ٥/١٥٠-١٥١، ١٥٢، ابن القلانسي تاريخ دمشق ص ١٧٣-١٧٤.

كربوقا، ان يتولوا—ثانية—زمام المبادرة وان يدخلوا، قادة وحلفاء، مع سائر امراء المنطقة، في معارك متتالية مع الصليبيين، وان يحققوا خلال صراعهم ذاك انتصارات بالغة الاهمية مكنت العالم الاسلامي من ان يقف على قدميه ثانية. وان يتحول من مراكز الدفاع الى الهجوم، كما فتحت الطريق امام ظهور قيادات اشد حنكة ودراية وتمكناً. أخذت على عاتقها، فيما بعد، السعي الدائب المنظم من اجل طرد الصليبيين وارغامهم على العودة ثانية من حيث جاءوا.

—قائمة المصادر—

ابن الاثير: ابوا الحسن عز الدين علي بن محمدالشيباني الجزري(ت٦٣٠هـ)
التاريخ الباهر في الدولةالا تابكية(بالموصل)، تحقيق عبد القادر احمد طليمات، دار الكتب الحديثة، القاهرة—١٩٦٣م.
الكامل في التاريخ، ١٢جزءا، دار الطباعة القاهرة—١٢٩٠هـ.

البنداري: الفتح بن علي بن محمد الاصفهاني(ت٦٤٣هـ).
تاريخ دولة آل سلجوق، من انشاء عماد الدين الاصفهاني(ت ٥٩٧هـ)واختصار البنداري، مطبعة الموسوعات، مصر—١٩٠٠م.

ابن تغرى بردى: جمال الدينابو المحاسن بنتغرى بردى الاتابكي(ت٨٧٤هـ)
النجوم الزاهرة في اخبار مصر والقاهرة، ١٣جزءا، ط١، مطبعة دار الكتب المصرية القاهرة—١٩٢٩—١٩٥٦م.

ابن الجوزي: عبد الرحمن بن علي بن محمد بنعلي (ت ٥٩٧هـ)
المنتظم في تاريخ الملوك والامم، ١٥اجزاء، ط١، مطبعة دائرة المعارف العثمانية حيدر آباد الدكن، الهند —١٣٥٩هـ

الحسيني: صدر الدين ابو الحسن علي بن ابيالفوارس (ت٦٢٢هـ)
اخبار الدولةالسلجوقية(المسمى: زبدة التواريخ في اخبار الامراء والملوك السلجوقية)تحقيق محمد اقبال، نشريات كلية فنجاب، ابنخلدون: عبد الرحمنبن محمد(ت٨٠٨ هـ). لاهور—١٩٣٣م.

العبر وديوان المبتدأ والخبر (ويسمى – اختصارا – تاريخ بن خلدون ط بولاق : ٧ اجزاء، ١٢٨٤هـ، وط بيروت ٦مجلدات، دارالكتاب اللبناني، ١٩٥٦–١٩٥٩م.

الذهبي : الحافظ شمس الدين محمد بن قايماز التركماني (ت٧٤٨هـ).
العبر في خبر من غبر، ٤اجزاء (الجزءان الاول والرابع تحقيق صلاح الدين المنجد، دار المطبوعات والنشر، الكويت–١٩٦٠م والجزءان الثاني والثالث تحقيق فؤاد السيد، مطبعة حكومة الكويت، الكويت–١٩٦١م).

سبط بن الجوزي : شمس الدين ابو المظفر بن قزاد غلي التركي (ت٦٥٤هـ
مرآة الزمان في تاريخ الاعيان، جزءان، ط١مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، الهند –١٣٧٠هـ=١٩٥١م

ابو شامة : شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي (ت٦٦٥هـ).
كتاب الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية، جزءان، تحقيق محمد حلمي محمد احمد. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة–١٩٥٦م.

ابن العبري : غريغوريوس الملطي (ت٦٨٥هـ)
تاريخ مختصر الدول، تحقيق انطوان صالحاني اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية، بيروت–١٩٥٨م.

ابن العديم : كمال الدين عمر بن احمد بن هبة الله (ت٦٦٠هـ).
بغية الطلب في تاريخ حلب، ٣مجلدات (مخطوطة) دار الكتب في القاهرة، رقم١٥٦٦.
زبدة الحلب من تاريخ حلب، جزءان، تحقيق سامي الدهان، المعهد الفرنسي دمشق–١٩٥٤م.

ابو الفدا: الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل بن محمد بن عمر (ت٧٣٢هـ)
المختصر في اخبار البشر، مجلدان، دار الكتاب اللبناني، بيروت

ابن القلانسي: ابو يعلي حمزة(ت٥٥٥)هـ.
ذيل تاريخ دمشق، تحقيق آمدروز، مطبعة الاباء اليسوعيين، بيروت١٩٠٨م

ابن كثير: اسماعيل بن عمر الدمشقي(ت٧٧٤هـ).
البداية والنهاية في التاريخ، ١٤جزءا مطبعة السعادة، القاهرة ١٩٣٢م

ابن واصل: جمال الدين محمد بن سالم(ت٦٩٧هـ).
مفرج الكروب في اخبار بني ايوب، ٣اجزاء، تحقيق جمال الدين الشيال، جامعة فؤاد الاول، القاهرة-١٩٥٣م.

ابن الوردى: زين الدين عمر(ت٧٥٠هـ).
تتمة المختصر في تاريخ البشر، جزءان، المطبعة الوهبية، القاهرة ١٢٨٥-هـ.